ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """"دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

أصبح تيمح مولعا بمشاهدة أفلام السينما منذ أول يوم حل فيه بمدينة فجيج .قبلها ،لم يكن يعرف سوى سينما العام التي كانت تجوب القرى فتعرض لقطات من الاشهار وبعض أفلام الويستيرن أو أفلام ""شارلو"" الساخرة في الساحات العامة .يومها ،كان موعد مع فيلم لشارلي شابلن """"الأزمنة المعاصرة :الآلة""كان ذلك الفيلم مناسبة ليتجاوز تيمح أثر الفراق بعد سنوات العشرة مع أسرته، مع الأم ،مع الإخوة ، مع الأصحاب في مدينة بوعرفة .كان فرصة ليضحك ويفتح عينيه على العالم الخارجي الذي لم يزره أبدا ،ولم ير منه الا الصور .لم يكن يسمح للطلاب خلال تلك الفترة الخروج من الدار أو الذهاب الى السينما ليلا .فحين تغلق الباب الكبيرة للداخلية ،تتحول الدار الى شبه سجن جماعي لأطفال بدأت ارهاصات المراهقة تغزو أجسادهم وعقولهم وتؤثر على نفسياتهم .كانت السينما تمثل متنفسا وحيدا لهؤلاء الشبان العطاشى الى كل جديد. كانت نافذتهم الوحيدة حينذاك نحو العالم الفسيح ؛عالم تظهر مدنه وأماكنه الطبيعية وطباع ناسه وثقافتهم في شكل

صور متحركة على الشاشة الكبيرة في ذلك المبنى الكبير على الشارع الرئيسي لفجيج، على مسافة متوسطة من دار الطالب. ظل تيمح طيلة الثلاث سنوات الأولى من دراسته هناك يرتاد ذلك الفضاء الفني العجيب مساء نهاية كل أسبوع .يجتهد ليجمع ثمن تذكرة الدخول حتى ولو حرم نفسه قطعة خبز اضافية من دكان ""با فَرْنَنْ"" أو اسفنجة من عند السفاج القريب .حتى ولو يضحي بقطعة بيسكويت تسد جوع ليلة من ليالي الداخلية الباردة ،وتمنع عنه ألما قد يلم بمعدته من قلة ما أكل من طعام فيها .حين كان في التاسعة من الثانوي أو ""البغوفي""،لم يكن قادرا على التضحية بشغفه بالسينما أو التخلي عن مشاهدة أفلامها ليلا .قرر والحال تلك أن يتحدى .أن يغامر بتجاوز القوانين المنظمة للحياة بالداخلية. بجوار الداخلية ،كان يسكن الطبيب الحكومي الوحيد بالمدينة آنذاك .احتوى المسكن على حوش واسع .امتد في وسطه سياج من شباك معدني ثبت بعناية فحجز خلفه غزالة ومهرة ذواتا جمال فتان ..على جانبه الأيسر ،امتد جدار تدرج في الهدم منحدرا

نحو جهة الغرب حتى التقى في نقطة منه بعتبة منخفضة مع أرضية الطريق المنبسطة والتي يغطي الرمل الناعم معظمها؛ تؤدي الى بساتين الأهالي المترامية هناك بين النخلات وعند الالتفاف تقود الى وسط المدينة .بعد كل وجبة عشاء ،صار تيمح وأحد رفقائه يصعدان سطح الداخلية متحفيين بالظلام ، تفضحهما بين خطوة وأخرى أضواء مصباح محطة الكهرباء القريبة .يمشيان بهدوء شديد .تنحني أجسادهما الى الأمام ،يقطعان تلك المسافة على السطح ،ثم ينزلان الجدار المنحدر بحذر شديد ؛حتى إذا لامسا أرضية الطريق ،انطلقا مسرعيْن الى دار السينما ،تستهويهما شاشتها العملاقة الملونة بألوان الشخوص والأماكن .ها هما يصعدان درجات الجدار من جديد بعد انتهاء العرض ,يعودان الى سريريْهما ،ثم ينامان حتى الصباح الموالي .أصبح الكثير من الطلاب يحذون حذوهما .يمتلئ الجدار بهم بعد وجبة العشاء ،ثم عند منتصف الليل .أصبح الذهاب الى السينما عبر ذلك الجدار الخطير أمرا مألوفا .كانت بديلا لتلك الباب الموصدة

في وجهه بعد السادسة من كل يوم .الباب التي خنقت رغباتهم وأحلامهم الواقعية. ما زالا يسلكان نفس السبيل ،ينتهجان نفس النهج للوصول الى مقصدهما المفضل حتى انقضى الموسم الدراسي .

في إحدى أيام يناير الباردة ،أخبرهم سي عزوز أنهم سيصلون الجمعة في أحد مساجد قصور فجيج ،قصر ""لوداغير"".سيذهبون الى هناك صفا صفا .سيمشون في الدروب هادئين كما كانت الحال عليه يوم دعاهم ""مو بوحا"" استاذ الرياضيات الى مأدبة العشاء تلك في قصر زناقة .عليهم أن يدخلوا المسجد مؤدبين نظيفة ملابسهم .متوضئين ينوون صلاة الجمعة مع الجماعة .في الصباح الموالي ليوم الخميس ،صباح الجمعة ،قام الطلاب من مراقدهم ،تناولوا الفطور وانطلق معظمهم الى الثانوية .لم يكن ما يشغل بالهم وهم على الطريق اليها ، وهم في فصولها يدرسون سوى تلك الصلاة مع أهل البلدة الوقيرين .سيستمعون الخطبة ويتلون القرآن الكريم مع شيوخ القصر وشبابه . تجهز النزلاء لمغادرة الداخلية .

اصطفوا مثنى مثنى يزين أجسامهم البياض. ينطلق موكبهم قاصدا المسجد .حين وصلوا ،نزع الجميع نعالهم .وضعوها جانبا مع نعال بقية المصلين .جلسوا على أفرشة حمراء كالزرابي المطرزة. كانت منسوجات محلية .صعد الإمام المنبر وقد أُعلن عن وقت الصلاة .شرع الطلاب منتبهين يستمعون للخطبة في خشوع واحترام . بجانب تيمح ،جلس أحد الطلاب القرفصاء يستمع في أدب .مع اقتراب نهاية الخطبة ،تحول الى مشاكس لا تتوقف حركته . ينظر يمينا ويسارا باستمرار .يغير في وضعية جلوسه دون استحياء والخطبة تقرأ على المنبر ،يفعل ذلك كمن يستعد للفرار أو لأمر ما سيقدم عليه .جلس تيمح منتبها مؤدبا بلا حراك .يرفع عينيه الى الأمام يراقب الإمام .انتبه لحركات جاره دون أن يلتفت اليه .أحس بشيء مريب في جانب مجلسه الأيمن.بعد لحظات قليلة ، أقيمت الصلاة ،قام المصلون مستقيمين معتدلين في صفوف مرصوصة لأداء ذلك الواجب الشعائري .توجه الجميع صوب القبلة ،ثم بدأت الصلاة .كان تيمح منسجما تماما مع

الموقف .خاشعا ينتظر اتمام الركعات والعودة الى الداخلية حيث ينتظر الجميع طبق من كسكس صدقة من أحد المحسنين في ذلك اليوم المقدس .سجد مع الساجدين .أخذ يُسبِّح مع المسبحين كما تعلم أن يفعل في ذلك الموقف.فجأة ، ومن دون سابق إشعار ، التفت اليه "حسن "وقال بصوت خافت """"تِكْشْبيلا تِوْلِيوْلَا "" كلمتان خرجتا في وقت صعب ، في وقت لا يمكن أن يخطر على بال أحد .كانتا فيصلا بينه وبين إتمام الصلاة ، بينه وبين البقاء في المسجد حيث سيسلم الإمام ، وسيرفع الكفين بالدعاء .انفجر تيمح يضحك بصوت مرتفع سمعه كل من كان في المسجد. تصاعد صوت ضحكه حتى ملأ المكان .وضع يده على فيه يضغط حتى لا يخرج مزيد من صوت القهقهة فينكر عليه الناس ذلك . أساء بفعلته تلك لهم إذ قطع خشوعهم . دفع بعضا منهم الى الضحك أيضا .قطعا لقد كره عليه الكثيرون ما قام به .بينما تابع حسن صلاته خاشعا لله تعالى .ما زحزح ذلك من خشوعه شيئا . غادر تيمح يقطع الصفوف مسرعا حتى بلغ الباب . مازال يضحك ويضحك متذكرا ما

قاله ذلك الطالب الماكر حتى خرج الناس من الجامع وهو على تلك الحال .ابتعد تيمح لمسافة تقيه تعرف الناس عليه فيقوموا بتوبيخه عما صدر منه .وهم على الطريق ،كان الشابان يضحكان ملء فيهما .لم يخطر ببالهما أنهما ضيعا أجر فريضة الجمعة .أنهما أزعجا المصلين كل الازعاج .كانا مجرد طفلين لم يتجاوزا ربيعهما الثالث عشر .عادا الى الداخلية يسقطان على صحن الكسكس كالطيور الكاسرة

كان للمناسبات الوطنية حضور مميز في ذاكرة الناس بمدينة فجيج منذ فجر الاستقلال . كذلك هو الأمر آنذاك في ثانوية سيدي عبدالجبار وفي الداخلية بدار الطالب .كان الثالث من مارس في وجدان الأهالي هناك وعند الطلبة حلقة وصل بين ماض من التضحيات الجسام عبر القرون وعلى عهد محمد الخامس رحمه الله ،وبين حاضر ومستقبل زاخر بالأحداث العظام على عهد الملك الحسن الثاني رحمه الله .كان تيمح رغم حداثة سنه يفهم كل هذه المعاني السامية التي تمثلها هذه المناسبة

وقد سبق أن عاين سكان قريته على الحدود ""أهل إيش"""يخلدون لها . يزينون الزقاقين وساحة "تلات نعلو"" بالأعلام الوطنية وصور الملك ؛يصنعون أقواس النصر بجريد النخيل فتبهج لها مداخل الدربين ""آت عبدالصادق ""و""مومنا""""" و المدرسة والزمن منتصف ستينيات القرن الماضي .رآهم يلبسون أفخر الثياب ،عباءات بيضاء في بياض السحاب ؛تعلو رؤوسهم عمامات بيضاء في بياض الثلج ،أو صفراء في لون الذهب .كانوا يطلقون الأولى ""أَحُوّاقْ"" وعلى الأخرى ""الطَّرْبَانْتِي""""" .يرقصون على طلقات البارود. تعانق أرجلهم رمال ساحة ""تلات نعلو"" الصفراء الناعمة .يهتفون بحياة الملك ويدعون له بالنصر ،ثم يقيمون الولائم "كسكس يسقى بالسمن والعسل.

منذ أن وطأت قدما تيمح أرض فجيج ،فتح عينيه على الأهالي يقيمون الاحتفالات والذكرى عيد العرش المجيد .يعدون لها أجمل الثياب والحلل. هم أيضا مثل أهل "إيش' نظافة وجمالا في الجسم والملبس ونقاء في السريرة .زينوا الشارع الرئيسي

والدروب المؤدية الى القصور المترامية باللافتات والأعلام والرايات وصور الملك .كان لأقواس النصر بجريد النخل حكايات أخرى وآيات من الحسن والروعة والتحدي .صارت فجيج لوحة من الحركة والألوان كأن فنانا من العظماء نحتها على تلك الطبيعة الغناء .في الثانوية ،وجد المعلمين والطلاب على العهد ينتظرون يوم الثالث من مارس بشغف كبير .وجدوه فرصة للإبداع والإبتكار وصقل المواهب وإبرازها .يتذكر تيمح ذلك الحفل الرائع الذي نظمته الثانوية .الاقتراح يومها كان بناء سفينة تحمل آمال المغرب وتذكر بتضحياته وماضيه التليد .ما أن حل يوم الثاني والعشرين من شهر فبراير ،حتى عقد المدير اجتماعا مع المعلمين كلهم .كان ذلك اليوم يوم عطلة استثنائي .في الغد، لما دخل الطلاب فصولهم ، كونوا ومعلميهم لجانا للإشراف على إعداد الاحتفال الكبير .الاحتفال الذي سينظم فيه استعراض ضخم يقطع الشارع الرئيسي بلا نهايات .جلبت المواد المناسبة لصنع تلك السفينة الضخمة .خشب وورق مقوى لصاق وأشياء أخرى لا يذكرها تيمح .انطلقت

الأشغال ،تسهر عليها نخب من الطلاب ذوي المهارات في العمل اليدوي والقياسات والتلوين وغيرها من العمليات المعقدة .هناك في قاعات أخرى كان فريق من الطلاب يتدربون على الأناشيد والمسرح .سهر فريق آخر على الاعداد للمسابقات الثقافية .سارت التحضيرات على قدم وساق .نشاط ليس له نظير .لا دروس تقدم خلال تلك الفترة .تشرئب الأعناق فقط الى يوم الذكرى .وحل يوم الثالث شهر مارس من عامألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ،اكتظ الشارع ناسا .اصطف أهل فجيج رجالهم ونساءهم والأطفال عبره قبالة قيادة فجيج لم يتركوا مكانا الا ملأوه. كان جمعا غفيرا من الناس من كل الأعمار .انطلق الحفل بعرض الفقرات الشيقة .كانت فرقة الماجوريت أول من تقدم .فتيات وفتيان يلبسون ملابس موحدة مقاسا ولونا ،يدقون على دفوف عجيبة في شكلها وصوتها تثير حماسة الحاضرين .تتحرك أبدانهم وأيديهم كأنها موسيقى عسكرية في يوم الزحف الأكبر .بعضهم صار يعزف على آلة كالمزمار .ينفخ عليها بفمه ""ترومبيت"" فتحدث

صوتا ينسجم مع الدف في ايقاع بديع . تتالت الفقرات العجيبة والابداعات الخلابة على مر الدقائق والساعات . طال الوقت و الحاضرون يصفقون ،يهتفون يلوحون بأيديهم للمشاركين في العرض .يشجعونهم .تعالت الزغاريد تخترق ذلك الصخب رنانة عذبة الترنيم. تقدم الفرسان ،سمع إطلاق البارود المدوي .يملأ الدخان الأبيض المكان متصاعدا فيزيده شموخا والشمس باسطة أشعتها على الوجود.

في الداخلية ،كان الطلاب على موعد مع طابق شهي .أكلوا حتى الشبع .مساء ذلك اليوم العظيم ،دعي الناس للاستماع لخطاب الملك .غصت الساحة من جديد وقد حل الظلام وغشي المكان .خرج تيمح ورفاقه من النزلاء يمرحون ويسرحون عبر الشارع الطويل تحت أضواء المصابيح على الأعمدة الشاهقة.انتظم الجميع صامتين فجأة وبداية الخطاب .لا صوت يعلو على صوت المذياع حيث الملك يخاطب شعبه .انفض الجمع في وقت متأخر من الليل.

.كانت نجوم السماء شاهدة على ما يجرى
هناك قبالة قيادة فجيج تراقب في اباء
.كانت دروس الوطنية ترسم على لوحة
ذلك المكان صورا بهية ،ومناظر أخاذة.
غداة العيد ،نظمت الداخلية أمسية فنية
وثقافية حضرها كبار الشخصيات المدنية
والعسكرية .لأول مرة يقف تيمح بين يدي
تلك الشخصيات ممثلا .لقد رأى
""الكوماندار ""عن قرب ،ورأى ""القائد"
في هدوئه عن قرب .كان فخره بنفسه لا
يضاهيه فرح .كان تيمح من بين
المشاركين في المسرحية .كان يمثل دور
مفتش أمني يتقمص دور امرأة عجوز
للقبض على مخالف للقانون